الفصل الثالث عشر

البحث عن حياة جديدة

لم يردعني شيء، وبدأت أتصفح صحيفة محلية باللغة العربية بحثًا عن إعلانات وظائف. سألت سامية عن مدارس إسلامية محلية، حيث يمكنني البحث عن وظيفة معلمة أو مساعدة معلمة.

أعطتني سامية عنوان مدرستين إسلاميتين في (بروكلين) حتى أرى إن كانوا محتاجين إلى معلمة للدراسات الإسلامية أو اللغة العربية. فاتصلت بمدير المدرسة الأولى (مدرسة النور) وحصلت على موعد لإجراء مقابلة. وفي صباح اليوم المقبل ركبت مترو الأنفاق، ومشيت ثلاثة صفوف من البيوت بعد أن توقفت مرات عدة لأسأل عن الطريق إلى هناك؟ ثم نظرت إلى أعلى، ورأيت مبنى ضخمًا أمامي شعرت بالخوف قليلًا، لكني ضغطت على نفسي لأدخل، فقد كنت في حاجة إلى المال. ابتسمت للأطفال الذين ركضوا بقربي في القاعة في طريقهم للصف، ثم اتجهت إلى المكتب الرئيس، وسلمت على السكرتيرة، قائلة:

«السلام عليكم. أين يمكنني مقابلة المدير لو سمحت؟».

كانت ترتدي حجابًا مثلي، مع تنورة طويلة وقميصًا ذا أكمام طويلة.

«بالطبع، سآخذك إلى مكتبه، اتبعيني سنسلك طريقًا مختصرًا خلال الكافتيريا».

مشينا بالقرب من طاولة تلو الآخر عليها أطفال يتناولون طعام الغداء، البنات على جهة والأولاد على جهة أخرى. كان بعض الأولاد يلعبون كرة القدم. ثم رأيت ولدًا يبلغ الخامسة عشرة من العمر تقريبًا يقف مطأطئًا رأسه، بينما كان رجل ينصحه بأن يدرس بجهد أكبر.

«أبو رائد؟ الأخت فدوى هنا تريد أن تراك».

«آه، أخت فدوى! يسعدني أن ألتقيك، ادخلي لمكتبي، وتفضلي بالجلوس. ارتاحي على الكرسي»، فشعرت فجأة بالأمل أن ذلك سينجح.

«أخبريني بالقليل عن نفسك. من أين أنت؟».

«والداي أصلهما من فلسطين، لكنا انتقلنا إلى الأردن، عندما كنت فتاة صغيرة».

«وأنا أيضًا لقد أخبروني بأنك قدمت طلبًا للتدريس، هل تعرفين قواعد اللغة العربية؟».

«نعم».

طلب مني أن أقرأ آية من القرآن، وأخبره بمعناها، فنفذت طلبه، وانتظرت ردّه. ثم انحنى بجسده للأمام، واتكأ بساعديه على الطاولة، لم أضع رجلًا على رجْل من باب الاحترام، وأرحت يديّ على حضني.

«هل أنت متزوجة يا أخت فدوى؟».

«عفوًا؟».

«هل لديك زوج؟».

«كان لدي، نحن الآن منفصلان».

«ولم انفصلتما؟».

تحركت على الكرسي متضايقة، وشعرت فجأة كم هو صغير المكتب، وحاولت أن أفكر بطريقة مقبولة لأتجنب الإجابة.

«ربما من الأفضل ألا نتحدث في هذا الموضوع».

«بالطبع. أخبريني، هل ترتدين الحجاب فقط بسبب هذه المقابلة اليوم؟ هل ترتدينه عندما تتقدمين بطلب لتعليم الدراسات الإسلامية؟».

«أنا أرتدي الحجاب منذ كان عمري عشر سنوات».

«حقًّا؟» صمت لحظة، ونظر إلي بإمعان، قائلًا: «المرأة دائمًا تحتاج إلى زوج، فهي ضعيفة وحدها».

حاولت أن أبقي ملامح وجهي هادئة؛ حتى لا أظهر ما أفكر فيه. لم أستطع التفكير في رد؛ لذلك جلست بصمت فحسب.

«حسنًا يا أخت فدوى، حاليًّا لدينا العدد الكافي الذي نحتاج إليه من المعلمين، لكن لدينا معلمة حامل، وسوف تأخذ إجازة أمومة بعد بضعة أشهر. سوف أتصل بك إن احتجنا إليك».

كنت أحمل معي دفتر ملاحظات؛ حتى أكتب عليه بعض المعلومات التي يمكن أن أحتاج إليها لاحقًا، وفور مغادرتي مدرسة النور رسمت علامة إكس على اسم المدرسة وعنوانها. فلقد أردت أن أنسى الماضي، وليس أن أعيشه مجددًا في كل مقابلة.

عدت إلى مترو الأنفاق، واتصلت بمدير (مدرسة المدينة) وحصلت على موعد لمقابلة أخرى، وعندما وصلت إلى متجر أخي في كوينز عرفتني سامية إلى صديقتها منال.

«إن كنت ترغبين يا فدوى، يمكنني أن أذهب معك إلى (مدرسة المدينة)، فأطفالي يدرسون هناك».

التقيت في الصباح في منزل منال، وأخذتني بالسيارة إلى مدرسة المدينة. كانت تعرف الجميع هنا، وتوقفت لتسلم على كثير من الأشخاص، أخذتنا السكرتيرة لنقابل المدير، وهو رجل مصري يرتدي ثوبًا أبيض بالكامل وذو لحية طويلة كثيفة، لقد كان متدينًا جدًّا، لذلك أحضر معلمة إلى غرفة المقابلة؛ حتى لا نخلو ببعضنا، ثم سألني أسئلة روتينية، مثل أين تخرجت؟، وكم كانت مدة دراستي؟

«نحن نبحث عن معلمة دراسات إسلامية، دعيني أسمع قراءتك للقرآن».

قرأت له، وأجبت عن بقية أسئلته.

«حسنًا، سأحتفظ بمعلوماتك، وأتصل بك إن احتجنا إليك».

شكرته، وغادرت الغرفة، التقت منال بي في الرواق، وضغطت على ذراعي، قائلة:

«كيف سار الأمر؟ أتمنى من كل قلبي أن تحصلي على هذا العمل، إنها مدرسة جيدة، ويدفعون جيدًا، على الرغم من أن المسافة طويلة للوصول إليها كل يوم».

قادت منال بنا السيارة لمنزلها، وتناولنا طعام الغداء مع بعضنا، بينما كنا نتحدث كم سيكون الأمر رائعًا لو حصلت على الوظيفة في مدرسة المدينة. لكن بصدق لم أكن متأكدة إن كان المدير سيعاود الاتصال بي، فطريقة طيّه للورقة التي تحوي اسمي ورقمي ووضعها في ملف سميك أوحت لي بأنه لن ينظر إليها عما قريب.

ثم سألتني منال: «لماذا لا تعملين في متجر أخيك يا فدوى؟».

«إنني أقوم ببعض الأعمال له».

«لكن ألا يدفعان لك بدل هذا؟».

«لا» أجبتها مترددة قليلًا، فلم أرغب أن تعرف الكثير عن هذا الوضع الشخصي.

«فهمت الآن لماذا تبحثين عن عمل يمكنني مساعدتك، سأعطيك بعض المال حتى تجدي عملًا، ثم يمكنك أن تسدديه لاحقًا».

أغلقت الباب فورًا في وجه هذه الفكرة، وقلت: «أوه، لا، شكرًا لك! لكني سأستمر في البحث، أنا متأكدة أني سأجد عملًا عما قريب».

حاولت منال أن تفكر في حلول أخرى لي.

«هل جربت المركز العربي الأمريكي لتعزيز الأسرة في منطقة بروكلين؟».

«مركز ماذا؟ لم أسمع به قط».

«إنه مركز كبير ولديهم كثير من البرامج لمساعدة العرب الأمريكيين في أمور مثل طلبات الهجرة والتأمين الصحي واللغة الإنجليزية والعمل الاجتماعي والاستشارة، وما إلى ذلك. عليك أن تذهبي إلى هناك يا فدوى، وتسألي عن عمل، ربما يوظفونك لإعطاء دروس في اللغة العربية، فأحيانًا عندما يعيش العرب مدة طويلة هنا يتحدث أطفالهم الإنجليزية فقط، ويمكن لآبائهم أن يدفعوا لك لمساعدة أطفالهم على تعلم العربية، سأعطيك رقم الهاتف والعنوان، إنهم يغلقون عند الساعة ٥:٣٠ مساءً».

بدا ذلك خيارًا واعدًا لي، فقلت لها: «ربما إذا غادرت منزلها الآن سيتاح لي الوقت للذهاب اليوم».

«لماذا لا تبقين معي هذه الليلة؟ يمكنك أن تذهبي إلى المركز من هنا بدل الرجوع إلى منطقة كوينز، ثم إلى بروكلين».

«أوه، شكرًا لك يا منال».

بعد أن أنهينا تناول الغداء أرجعتني منال إلى مترو الأنفاق، وتمنت لي حظًّا سعيدًا. استقللت القطار (ر) إلى ١٥٠ شارع كورت. وعندما وصلت للمبنى الذي يقع فيه المركز العربي

الأمريكي لتعزيز الأسرة فتحت الباب الزجاجي بتردد، وبحثت في أسماء وأرقام المكاتب على الحائط، حتى عرفت أين أذهب، ثم صعدت على الدرج إلى الطابق الثالث، وفتحت الباب، فوجدت شابًّا جالسًا وراء منضدة.

«السلام عليكم. أنا أبحث عن عمل هل هناك أحد يمكنني التحدث معه بخصوص هذا؟».

«تفضلي اجلسي دعيني أرى إن كانت مساعدة المديرة مشغولة أم لا».

شكرته، وجلست في غرفة الانتظار، وبعد خمس دقائق جاءت سيدة تمشي في الرواق، وتبتسم لي.

«السلام عليكم!» صافحت يدي، وقالت: «اسمي إيمان».

«وأنا اسمي فدوى».

«تفضلي إلى مكتبي يا فدوى».

تحدثنا قليلًا، بضع دقائق، ثم أخبرتها بأنني أبحث عن عمل.

«أحاول أن أجد عملًا عند الجالية الإسلامية؛ لأني أرتدي الحجاب، فكما تعلمين، بعدما حدث في الحادي عشر من سبتمبر أعتقد أن من الأسهل إيجاد عمل مع أناس يفهمونني، ولا ينظرون إلي بارتياب طوال الوقت، يمكنني تعليم اللغة العربية لأي مستوى».

فكرت إيمان لحظة، ثم قالت:

«أتعلمين يا فدوى، كثير من الناس يتصلون بالمركز أو يزورونه ليسألوا إن كنا نعطي دروسًا في اللغة العربية. لذلك تحدثنا أنا والمدير (أميرة) وعملنا على الحصول على موافقة على هذا المشروع الجديد، ومن حسن الحظ أنك أتيت؛ لأنه ليس علينا الآن البحث عن معلمة. لكن يحتمل أن يستلزم الأمر شهرًا أو اثنين لنبدأ. وفي هذه الأثناء لماذا لا تنضمين لصف اللغة الإنجليزية هنا في المركز، وتتعرفين إلى الموظفين؟ لدينا مدرس أمريكي ماهر اسمه (جون). فيمكنك في الصف التعرف إلى طلاب آخرين، ينعقد الصف مرة في الأسبوع صباحًا».

«نعم، يمكنني فعل ذلك.

كنت لا أزال غير متأكدة كيف سأجني مالًا كافيًا يجعلني مستقلة عن أخي وزوجته، لذلك قررت فعل شيء يزيد خياراتي. وفي نهاية شهر كانون الثاني ٢٠٠٣م بدأت آخذ الحصص الإنجليزية في كلية (برامسون أورت) وكانت في المساء.

اتصلت منال بسامية، وأعطتها رقم هاتف مدرسة إسلامية أخرى اسمها (البر) في منطقة كوينز. كان ذلك اليوم أحد تلك الأيام الغريبة التي تشرق فيها الشمس، وتمطر السماء في الوقت نفسه، استقللت بضع حافلات وقطارات حتى أصل إلى مدرسة (البر)، لكني ضِعت مرات عدة، ثم بدأت السماء تمطر بغزارة، وفي النهاية عندما وجدت المدرسة كانت ملابسي وحذائي وحجابي مبللة بالماء، أجلستني السكرتيرة بالقرب من المدفأة لأجفف نفسي قليلًا قبل المقابلة.

وبعد بضع دقائق تم تقديمي إلى المدير وزوجته اللذين من أصل مصري، سألاني بضعة أسئلة، ثم أخذاني إلى الصف الدراسي الأول، حيث طلب مني أن أقوم بالتدريس. فقدمت نفسي، وكتبت اسمي على السبورة، ثم أخذت نفسًا عميقًا، ونظرت إلى أعين الطلاب المترقبة، فشعرت فجأة بالسكينة والهدوء، فأنا ماهرة جدًّا في التعامل مع الأطفال.

«من يعرف سورة الفاتحة؟».

«أنا أنا يا مِس فدوى، اختاريني!» وارتفعت كثير من الأيادي.

اخترت أحد الطلاب، وكلي حذر ألا أظهر تعابير مضحكة على وجهي، وهو يقرأ ببطء وتردد، فلم أرد أن أحرجه.

«ما رأيكم أن أقرأ، وتردّدوا ورائي؟».

استمررنا بالدرس على هذا المنوال إلى أن أشار إلي المدير بالتوقف. وبينما كنت ألتقط معطفي وحقيبتي نادت علي طالبة في الفصل، قائلة: «ابقي معنا يا مس فدوى!».

ابتسمت لها، قائلة: «سوف أعود إن شاء الله؟».

بعد ذلك أخبرني المدير، مثله مثل سابقيه، أنه سيسجل عنواني ورقم هاتفي، ويتصل بي إن احتاجوا إلي.

وبعد أن عدت إلى المنزل سألتني سامية: «هل جربت المسجد؟ إنهم يعطون حصص لغة عربية للأطفال في عطلة نهاية الأسبوع».

اتصلت بهم، لكنهم كانوا يريدون متطوعين فقط.

ترك أحدهم صحيفة باللغة العربية خارج متجر سام، فذهبت، وتصفحت الإعلانات بحثًا عن عمل، وفي النهاية وجدت إعلانًا لصالون تجميل في بروكلين. كنت قد درست التجميل في أثناء عطلة الدراسة الصيفية في الأردن، وكان معي شهادة ورخصة؛ لذلك اتصلت بمالكة الصالون، وهي امرأة لبنانية تدعى (هيلينا).

«مرحبًا، أنا أبحث عن وظيفة».

تحدثت هيلينا إليّ بصوت لطيف، وطلبت مني أن آتي إلى صالونها في اليوم المقبل. وعندما التقيتها أريتها شهادتي باللغة العربية؛ حتى تعرف أنني مؤهلة للعمل في صالون تجميل. كانت تتحدث القليل من العربية، لكنها لم تستطع قراءتها بالمرة. لكن على الرغم من ذلك عرضت علي وظيفة، وأخبرتني بأنه يمكنني البدء بالعمل حالًا، ووافقت على أن تعطيني ساعات عمل مرنة؛ حتى أتمكن من متابعة الحصص الدراسية في كلية (برامسون أورت) وفي المركز العربي الأمريكي لتعزيز الأسرة، لم أسألها كم ستدفع لي، فهي على الأغلب تريد أن ترى عملي أولًا، وإضافة إلى ذلك كانت تلك فرصة لتعلم مهارة يمكن أن تساعدني على تأسيس حياتي في الولايات المتحدة. فحتى لو لم أجنِ الكثير هنا، لكن يمكن أن يفتح لي هذا أبوابًا لأعمال أخرى في المستقبل.

بعد أن وافقت هيلينا على إعطائي الوظيفة أخبرتني بالقليل عن نفسها. فهي لبنانية مسلمة شيعية غادرت مع والديها من لبنان إلى الولايات المتحدة في عمر السادسة، وهذا هو سبب تكلمها العربية دون أن تكتب إلا بضع كلمات.

«فدوى، ربما تستطيعين تعليمي كتابة اللغة العربية وقراءتها».

«بالطبع، يسعدني تعليمك يا هيلينا».

كانت عائلتي من الطائفة السنية، لكن لم أكن أهتم إن كانت هيلينا من الشيعة، ولا أهتم إن كانت سنية أو شيعية أو مسيحية أو أي شيء آخر، طالما هي شخص جيد. غادرت الصالون، وأنا أشعر بأن علاقة صداقة وثيقة ستنشأ بيننا.

عدت إلى متجر أخي، وأخبرتهم بأني وجدت عملًا.

«كم ستدفع لك يا فدوى؟».

«لا أعرف، فنحن لم نناقش ذلك».

لـم أدع هذا التشـاؤم يؤثر فـي، فقد وجدت أخيرًا وظيفة، وبدأت الدراسـة، وأصـبحت الأمور تتحسـن. وفي اليوم المقبل ذهبت لأبدأ أول يوم لي في صـالون هيلينا وبرفقة امرأتين أخريين: واحدة من المغرب والأخرى من روسـيا، قمت بغسـل شعر الزبونة، وصففته بمجفف الشـعر، كانت الإكراميات هي أجرتي. لم يكن مبلغًا كبيرًا، لكنه ساعدني إلى حين العثور على عمل أكثر استقرارًا.

وفـي وقت تنـاول الغداء بقيت في الغرفة الأمامية للصـالون، بينمـا اجتمع الآخرون في غرفة صـغيرة في الخلف ليأكلوا مع بعضـهم، فقـد ذهبت هيلينا إلى مطعم قريب، واشـترت طعامًا لنتشاركه، أرز مع لحم وخبز محشوّ بجبنة بيضاء مصنوع في البيت.

نادت علي هيلينا، قائلة: «نحن جميعنا نأخذ استراحة طعام الآن، تعالي، وشاركينا!».

تملمت قليلًا، وأخبرتها بأنني لست جائعة، فلم يتبقَّ معي نقود، ولم أرغب في أن أعترف بأنني لا أقدر على أن أدفع لها.

«نعم، عليك أن تأكلي. تعالي! هذا الطعام للجميع».

سألتني هيلينا عن اسمي مرة أخرى.

«أنا آسفة! لكن ذاكرتي ضعيفة!».

تمعنـت في وجهي لحظة، ثم قررت أن تطلق عليّ اسـمًا؛ حتى تتذكر بأي اسـم تناديني، عندما آتي إلى الصالون في المرة المقبلة.

«أنـت تملكيـن وجهًا جميلًا ذا خدين محمّريـن، وعينان جميلتـان، الجميع يحب الورد؛ لذلك سأسميك (وردة).

ابتسمت، وقلت لها: «يمكنك أن تسميني وردة، إنه اسم جميل، ومغنيتي المفضلة اسمها وردة».

أصبحت هيلينا مع مرور الوقت تشعر بارتياح أكبر، عندما تتحدث إلي، وأصبحنا صديقتين مقربتين، فعندما كانت تريد أن تذهب إلى أي مكان كانت تطلب مني أن أذهب معها. وفي أحد الأيام أخذتني هيلينا معها لتشتري تجهيزات للصالون، ذهبنا إلى متجر شرقي، وأخبرت المالك بأنني إحدى قريباتها.

استمررت بالذهاب للكلية في المساء، كانت معلمتي (مريم) من إيران. وكان هناك طالبان يونانيان في الصف، اتضح أن ذلك الفصل الدراسي هو أفضل فصل حظيت به، فقد استمتعنا وساعدنا بعضنا، حتى في الامتحانات كنت أشعر بأن لغتي الإنجليزية تتحسن كل أسبوع، كنت أعرف أن سام وسامية لم يعجبهما رجوعي للمنزل متأخرة، فقد كانت حصصي الدراسية تنتهي في ١٠:٠٠ ليلًا، وكان علي المشي صفين من البيوت لأستقل الحافلة. فكنت أرجع للمنزل عند الساعة ١١:٣٠ أو ١١:٤٥، فلاحظ سام وسامية ذلك، وعلقا على هذا الأمر في صباح اليوم المقبل. لكني تجاهلت تعليقاتهما وأسئلتهما على طاولة الإفطار، وقررت أيضًا أنه من الأفضل ألا أخبر أخي بأنني أجني إكراميات فقط في الصالون، لكني اكتشفت أنه لم يعد لدي الوقت الكثير لأساعدهما في متجرهما.

وفي يوم الخميس ذهبت كالمعتاد إلى المركز العربي الأمريكي لأحضر حصة اللغة الإنجليزية عند الساعة ١٠:٣٠ صباحًا، وبعد أن انتهيت من الحصة اتصلت بي هيلينا لتسأل إن كنت أستطيع الحضور للعمل يوم الجمعة، وهو يوم عطلتي من الكلية؟ فقد كانت هناك حفلة زفاف كبيرة، وستحضر النساء ليصففن شعرهن، ويضعن المكياج.

«أتعنين يوم الجمعة غدًا يا هيلينا؟».

«نعم، غدًا. أعرف أنني أخبرتك متأخرة، لكنك ستقدمين لي خدمة كبيرة، وسوف تحصلين على إكراميات كثيرة».

«نعم، بالطبع، سأساعدك».

كنت في حاجة ملحة إلى المال في تلك اللحظة، فلم يتبقَّ معي إلا ١٥ دولارًا.

وفي المساء ذهبت إلى منطقة كوينز لأحضر حصة اللغة الإنجليزية في كلية برامسون أورت. كنت أحب أن أذهب باكرًا إلى هناك؛ حتى أستخدم الحاسوب أو أقرأ بعض الكتب في

المكتبة، وأخيرًا عندما وصلت متأخرة للمنزل في تلك الليلة أخبرت سام بأنني سأعمل في اليوم المقبل، ومن المحتمل أن أعود للمنزل في وقت متأخر جدًّا.

«متى ذلك الوقت المتأخر؟».

«لا أعرف، فهذا يعتمد على متى سننتهي من حفلة الزفاف».

لم يقل سام وسامية شيئًا، لكنهما كانا متجهمين.

احتشدت عشرون امرأة في صالون هيلينا الصغير في وقت الظهيرة من يوم الجمعة. وتناوبنا نحن فتيات المتجر على غسل شعر الزبونات وتجفيفه ووضع المكياج، وقامت هيلينا بتسريح شعرهن تسريحات جميلة. اعتنينا بجميع النساء اللواتي سيحضرن حفلة الزفاف، ثم بالعروس نفسها. وعندما انتهينا أخيرًا، ونظفنا الصالون نظرت إلى الساعة، وأدركت أنها ١٢:٣٠ ليلًا.

«عليّ أن أرجع إلى المنزل يا هيلينا، فأخي سينزعج إن عرف كم أنا متأخرة. لكن لا تقلقي، فمعي مفتاح سأراك في الأسبوع المقبل».

«أأنت مجنونة يا وردة؟ لا يمكنك الذهاب في مترو الأنفاق في هذا الوقت وفي عطلة نهاية الأسبوع، وإنه خطر عليك لا، لن تذهبي للمنزل يمكنك البقاء معي فقط أعطيني رقم هاتف أخيك، وسوف أتصل به».

اتصلت هيلينا بسام، وعرّفته إلى نفسها، ثم شرحت له الوضع، قائلة: «سام، كان علينا أن نعمل حتى وقت متأخر بسبب حفلة الزفاف، وليس من الأمان أن تستقل فدوى مترو الأنفاق لترجع للمنزل الآن؛ لذلك سوف تبقى معي هذه الليلة، ثم سترجع إلى المنزل في الصباح، لا تقلق، فأنا وابنتي نعيش في المنزل، ولا يوجد أي رجال معنا».

كنت خائفة من ردّة فعل أخي، لكنه قال: «حسنًا» وأغلق الهاتف.

وهكذا ذهبت إلى منزل هيلينا، صعدنا على الدرج، وقرعنا الجرس، ففتحت ابنتها الباب.

عرفتني هيلينا إليها، قائلة: «هذه وردة يا إميلي، وهذه ابنتي إميلي يا وردة».

سلمت علي إميلي، وتناولت طعام العشاء معها ومع ابنتها، ثم ذهبت إلى غرفة نومها؛ لتدرس، كانت في عامها الدراسي الأخير في المدرسة الثانوية. ذهبت هيلينا إلى غرفتها، وبعد دقائق رجعت ومعها مجموعة بيجامات نظيفة ومنشفة حمام وصابون وشامبو لي.

«استحمي يا فدوى، بينما أنتهي من غسل الأطباق».

إنه لشعور جميل أن يعتني بك الآخرون.

وبعد العشاء أدارت هيلينا موسيقا عربية، ورقصنا رقصًا شرقيًّا في غرفة المعيشة. أول مرة منذ أن أتيت إلى الولايات المتحدة أطلقت لنفسي العنان لأستريح، وأتسلى، وشعرت في داخلي بأن الأمور ستصبح أفضل من قبل.

وعندما لم نستطع البقاء مستيقظات دقيقة أخرى من شدة النعاس، أخبرت هيلينا بأنني سأنام في غرفة المعيشة.

«لا، يا وردة، لدي سريران في غرفة نومي، ويمكنك أن تنامي هناك».

استيقظنا عند الساعة ٧:٠٠ صباح يوم السبت، فاستحممت وصليت، ثم شربنا القهوة، وجهزنا أنفسنا على مهل، فهيلينا كانت ستفتح الصالون في وقت متأخر من الصباح، لذلك لم نكن في عجلة من أمرنا. وبعد ذلك عانقت هيلينا، وشكرتها على ضيافتها، ثم ذهبت إلى مترو الأنفاق لأعود إلى شقة أخي، ولأنه كان معي نقود أكثر من المعتاد، التي جنيتها من إكراميات حفلة الزفاف (مئة دولار زائد العشرة دولارات التي كانت معي مسبقًا)، قررت أن أشتري بطاقة مترو شهرية بدل أن أدفع ثمن تذاكر متفرقة في كل مرة أستقل مترو الأنفاق. كلفني ذلك ٨٠ دولارًا، وبقي معي ٣٠ فقط.

عادة أخي يفتح متجره متأخرًا أيام السبت، عند نحو الساعة ١١:٣٠ صباحًا. وصلت المنزل عند الساعة ١٠:٤٥ صباحًا، وتوقعت أن يكونا في طريقهما إلى المتجر في هذا الوقت، لكن عندما أدرت المفتاح في الباب، وفتحته دهشت عندما رأيت سام وسامية وأمي ينتظرونني في المطبخ. عرفت من ملامح أوجههم المتجهمة ومشية أخي المتوترة أنهم منزعجون جدًّا، ثم التفت أخي نحوي محاولًا جاهدًا أن يضبط أعصابه، وقال لي:

«مع من كنت الليلة الماضية يا فدوى؟».

صعقت بسماع ذلك، وأجبته:

«أنــت تعرف مع مــن كنت، فقد اتصــلت، وأخبرتك، كنت مع هيلينا، المــرأة التي تملك الصالون الذي أعمل فيه».

«مع من يا فدوى؟! مع من؟!».

أصبح صوتي هادئًا جدًّا «لقد أخبرتك».

صفعني على وجهي، وشدّ شعري.

«أخبريني أين كنت».

بدأت أمي بالبكاء بصوت عالٍ، فوضعت يدي على كتفها، قائلة:

«لا تقلقي يا أمي. أنا بخير».

أنا أم لخمسة أطفال، ولم أرغب أن يعاملني أحد كمراهقة طائشة.

«مع من يا فدوى؟».

«لقد أخبرتك».

«عاهرة! أخرجي من منزلي».

بدأت أمي بالبكاء بشدة، وقالت لي: «خذيني معك يا فدوى!».

أمسكت سامية ذراعي، ودفعتني نحو الحائط، وقالت:

«لا، لن تذهب إلى أي مكان معك».

لــم يكــن لدي وقت لأغير ملابســي، أو أجمع أغراضــي، وبعد أن غادرت تذكرت بأســف أنني نســيت حقيبتي المدرســية في غرفة نومي، لكن على الأقل كنت أحمل حقيبتي على كتفي وفيها جوازا السفر وهويتي وبطاقة الضمان الاجتماعي وشهادة الثانوية. فقد عرفت في أعماق قلبي أن عليّ أن أحتفظ بتلك الوثائق معي وإلا فسأضــيعها لم آخذ شــيئًا آخر، وغادرت المنزل بســرعة، ولــم يتبعني أحد للخارج ليســألني في أي مكان ســأقيم؟ لــم أرد أن أخبر هيلينا بما حدث، فهذا ليس خطأها، وستشــعر بالأســى إن عرفت، وكنت متأكدة أنها ستطلب مني البقاء عندها، لكني لم أرد أن أثقل كاهلها بمشكلاتي.

مشيت في الشارع، وأنا أمسح دموعي، ثم جلست على مقعد بارد في متنزه عام، لم يكن لـدي وقت لآخذ معطفي الثقيل من المنزل، لذلك فركت ذراعيّ بسـرعة، محاولة أن أدفئهما. كان شهر كانون الثاني لم يفت بعد، لكن على الأقل لم يكن هناك ثلج. بحثت في حقيبتي حتى وجدت بطاقة اتصال، ثم اتصلت بأطفالي في السعودية.

«مرحبًا ماما! كيف حالك؟ أمازلت في نيويورك؟ ماذا تفعلين؟».

«أنا بخير! أنا في طريقي إلى الكلية الآن، وحصلت على وظيفة».

تحدثـت معهم حتى كادت دقائق الاتصـال فـي بطاقتي تنفد، ثم ودعتهم. وفي المسـاء مشـيت من متنزه إلى آخر. رأيت أشخاصًـا كبارًا في السـن يلعبون لعبة الشـدّة والداما، وهم يضـحكون، الشـمس غابت والليل أقبل، كنت آمل أن يبقوا، لكنهم جمعوا ألعابهم في النهاية، وذهبوا إلى منازلهم بعد أن تمنوا لبعضـهم أمسية سعيدة، وتفاخروا بطعام العشاء الذي على وشك أن يتناولوه.

جلست على مقعد آخر، وحضنت رجليّ إلى صدري، أربت عليهما من حين لآخر؛ لأحافظ على جريان الدم، أصـبح جسـدي يزداد برودة، ثم رأيت بعض ضـباط الشرطة يدورون حول المتنزه، لكني خفت أن أدعهم يرونني؛ لأني لم أعرف إن كانوا شرطة صالحين أم لا. وتساءلت أيضًـا إن كانوا سـيعتقدون أنني إرهابية، عندما يرون حجابي؟ أوليس من المفترض أن تكون جميع الفتيات المسـلمات في منازلهن في هذا الوقت؟ لذلك جلسـت بهدوء، وتظاهرت بأنني لم ألاحظ سيارات الشرطة.

نهضت بسرعة، ومشيت إلى محطة حافلات قريبة، محاولة جهدي أن أبدو كأنني أسلك الطريق الذي أسلكه كل يوم من عملي إلى منزلي، ربما يمكنني أن أبقى في المواصلات العامة طـوال الليل، فهي مدفّأة على الأقل. وهكذا ركبت الحافلـة إلى مترو الأنفاق، ثم ركبت القطار ذهابًـا وإيابًا بين منطقتي بروكلين وكوينز. كنت خائفـة أن أغمض عينيّ خوفًا من أن يؤذيني أحدهم في مترو الأنفاق في منتصـف الليل. كادت همهمة القطار تجعلني أنام، لكني لاحظت فجأة أن رائحة مترو الأنفاق المألوفة يختلط بها الآن رائحة زيت أطفال، فاستيقظت، ونظرت حولـي لأرى إن كانـت هناك امرأة تجلس مع طفلها. لكن ما أثار دهشـتي هو أنني كنت المرأة

الوحيدة على متن القطار، كانت رائحة زيت الأطفال تأتي من مقدمة عربة القطار، حيث جلس رجل يستمني بيده، وكان على ما يبدو غير واعٍ بوجودي.

توقف القطار، وغادر الرجل. وبعد ذلك صعد رجل آخر للقطار يبتسم لي، ويغمز لي بعينه، ثم جلس، وبدأ يستمني بيده. وحالما توقف القطار ركضت إلى العربة المقبلة، التي كانت رائحتها كرائحة البول، وهكذا أمضيت بقية الليلة أمشي من عربة إلى أخرى.

وفي اليوم المقبل، يوم الأحد صباحًا، ذهبت إلى صيدلية، واشتريت بعض أقراص الدواء لتبقيني مستيقظة في أثناء الليل، ثم صعدت إلى حافلة، وأنا لا أعرف أين سأذهب، وأغلقت عينيّ لحظة.

«ماما!».

فتحت عينيّ، ووضعت يدي على رأس أنس أبتسم له.

«ممم، ماما؟».

لم يكن ابني، بل كان طفلًا آخر ينادي على أمه، وينظر إلي كأنني وحش. نظرت إليّ أمه نظرة شك.

«أنا آسف يا سيدتي، لم أقصد الأذية. سمعته يقول: ماما، وهو يشبه ابني كثيرًا».

جلست بالقرب من النافذة، محاولة ألا تلتقي عيناي بعين أحد حتى توقفت الحافلة عند شارع اسمه (فلشنج)».

وعندما ترجلت من الحافلة اقترب مني شاب في السابعة عشرة من عمره تقريبًا، وقال لي:

«السلام عليكم! كيف حالك؟ أأنت ذاهبة إلى المسجد؟».

«هل هناك مسجد قريب من هنا؟».

«نعم، أنا ذاهب الى هناك الآن، أمي أمريكية وأبي من أفغانستان. إمام المسجد أفغاني أيضًا، وأريد أن أرى إن كان يمكنه مساعدتي في العثور على والدي، ماذا تفعلين؟».

لم أستطع إجابته بصدق، وقلت له: «إنني أتمشى».

«أتريدين أن تذهبي معي؟».

«طبعًا».

وهكذا مشينا مع بعضنا، والتقينا الإمام، اكتشفت أن هذا المسجد يعقد حلقات دراسية أسبوعية؛ حتى يتمكن الآباء من إرسال أطفالهم لتعلم اللغة العربية، وكانوا يحتاجون إلى معلمة إضافية. وعلى عكس المسجد الذي أخبرتني عنه سامية كان هذا المسجد يدفع للمعلمين، فقد عرض علي الإمام مبلغ ٢٥٠ دولارًا شهريًّا لأعطي دروسًا كل عطلة أسبوع، لم يكن ذلك مبلغًا كبيرًا، لكنه أضاف إلى المبلغ الذي كنت أجنيه في الصالون.

احتاج الإمام إلى بعض الوقت ليتصل بالآباء؛ ليخبرهم بأنه وجد معلمة حتى يأتوا، ويسجلوا أطفالهم، ويدفعوا تكاليف تعلمهم.

«ها هو رقم هاتف مكتبي اتصلي بي في غضون أسبوعين».

ذهبت إلى الطابق الثاني، حيث هناك منطقة مخصصة لتصلي فيها النساء. ثم ذهبت إلى المرحاض لأغتسل قدر الإمكان دون أن ألفت الأنظار. وعندما رأيت امرأة تخرج من إحدى حجيرات المرحاض سألتها إن كان المسجد يبقى مفتوحًا طوال الليل؟

«لا، إنه يغلق عند الساعة ١٠:٣٠ مساءً».

فكرت لحظة أنه بإمكاني النوم هناك، لكن لم يحالفني الحظ استهوتني فكرة أن أخبر الإمام بما حدث لي، وأسأله إن كان يعرف مكانًا أستطيع المكوث فيه؟، لكني لم أعرف ماذا سيكون رأيه فيّ عندما يعرف أن أخي طردني من بيته، وربما لن يسمح لي بتعليم اللغة العربية في المسجد، ويعتقد أنني امرأة منحلة. ذهبت لأصلي، واستلقيت على السجادة، فقد كنت مرهقة جدًّا من محاولة البقاء مستيقظة في مترو الأنفاق في الليل، فنمت ولم أستيقظ إلا بعد ساعتين عندما سمعت الأذان، وبقيت في المسجد حتى وقت الإغلاق قبل أن يجب علي العودة إلى مترو الأنفاق.

في اليوم المقبل تجولت على غير هدى طوال الصباح، وفي المساء ركبت الحافلة، ثم مترو الأنفاق متوجهة إلى الكلية، فعلى الأقل منحني ذلك مكانًا دافئًا وآمنًا أبقى فيه بضع ساعات، وعندما وصلت إلى الكلية اعتذرت لمعلمتي، وأخبرتها بأنني أضعت كتبي. كانت كتبي

في شقة سام، ولم أستطع أن أعود، وأسترجعها، لكني أيضًا لم أستطع أن أخبر معلمتي بما حدث لي، فإذا عرفت أن أخي طردني من منزله يمكن أن تعتقد أنني فعلت شيئًا مخزيًا، طمأنتني المعلمة بأن لا مشكلة في ذلك، وطلبت من تلميذ آخر أن يعيرني كتابه؛ حتى أستنسخه، وأدرس منه.

بعد أن انتهت الحصة الدراسية مشيت خارجة من المبنى، مثل الجميع أبتسم، وأتظاهر بأنني ذاهبة لأركب القطار نحو المنزل. لكني بقيت في القطار طوال الليل أمشي من حين لآخر من عربة إلى أخرى لأبقى مستيقظة، وكنت أحرس حقيبتي بحذر، وأتجنب أن تلتقي عيني بعين أي شخص من راكبي القطار. كان ركوب القطار في منتصف الليل مرعبًا مقارنة بركوبه في أثناء النهار، ففي الليل تجد أشخاصًا غريبي الأطوار يضحكون كالمهوّسين أو يتبولون على الأرض.

عند الساعة ٨:٠٠ صباحًا خرجت من القطار لأستقل حافلة إلى المسجد، لكنه كان مغلقًا. فذهبت أمشي في الشارع، وبعد ثلاثة صفوف من البيوت تقريبًا رأيت امرأة عجوزًا تحمل أكياس تسوق، فسألتها إن كانت في حاجة إلى مساعدة؟، لكنها ابتسمت قائلة:

«هذا لطف منك أأنت من أفغانستان؟».

«لا، أنا من فلسطين».

كانت تلك المرأة معلمة متقاعدة مات زوجها قبل سنوات عدة، وكانت تعيش وحدها، ساعدتها على حمل مشترياتها، وصعدت الدرج إلى شقتها. وهناك دعتني لأتناول بعض القهوة أو الشاي، لكني كنت خائفة أن أبدو متلهفة كثيرًا وأرعبها، فعدت أنزل الدرج، استهوتني فكرة أن أرجع لأعلى، وأرجوها أن تسمح لي بمساعدتها في الأعمال المنزلية لقاء مكان أبيت فيه، لكني ضبطت نفسي، ولم أفعل، لوحت لها بيدي ومشيت مبتعدة.

وفي المتنزه المجاور راقبت بعض الشبان يلعبون كرة القدم وكرة السلة. كانوا يبدون مرتاحي البال، فهم يعرفون أنهم بعد كل هذا التعب والتعرّق سيذهبون لمنازلهم ليستحموا ويجدوا طعامًا وماءً ينعشون أنفسهم به، أما أنا فجلست على المقعد، وتناولت بعض رقاقات الشيبسي، وشربت القليل من الماء، وكنت أحاول أن أقتصد قدر الإمكان في طعامي وشرابي؛ حتى لا أضطر إلى استعمال الحمامات العامة كثيرًا. لكن سيطر عليّ جوعي في النهاية، رأيت

فتاتًا من الخبز ملقى على الأرض لتأكله الطيور التي أكلت حتى الشبع، وتركت الباقي ليتعفن، فنظرت حولي لأتأكد ألا أحد يراقبني، وأخذت بيدي بسرعة الخبز، وأكلته بنهم.

استقللت في ذلك المساء حافلة إلى الكلية. وقبل أن أدخل الحصة اتصلت إيمان بي، وطلبت مني أن أمر على المركز العربي الأمريكي لتعزيز الأسرة في اليوم المقبل؛ لتعبئة طلب الحصول على وظيفة تدريس. أرغمت نفسي على ألا أبدو يائسة، وأنا أخبرها بأنني سأراها غدًا.

سألتني أستاذتي مريم في كلية (برامسون أورت) إن كنت بخير؟

«أنت تبدين متعبة جدًّا يا فدوى».

«لا، أنا بخير لكني متعبة قليلًا، فأنا أسهر الليل لأدرس».

فكرت أن أبقى في المدرسة في تلك الليلة حتى أغير الروتين. فبعد أن انتهت الحصة مشيت خلف الجميع، وعندما ابتعدوا عني مسافة آمنة رجعت، وذهبت إلى الحمام، لكني لم أقدر على الاختباء في مقصورة الحمام إلا حتى الساعة ١٠:٣٠ مساءً عندما سمعت أحدهم ينادي قائلًا:

«أهناك أحد في الداخل؟».

دخل عامل النظافة إلى الحمام، ونظر إلي بفضول.

«أنا آسف، لكن علينا أن ننظف الآن».

مشيت صفين من البيوت نحو مترو الأنفاق، وبقيت مستيقظة طوال الليل في القطار، أدرس في الأوراق التي أخذتها في الصف.

وفي اليوم المقبل ركبت الحافلة، ثم انتقلت إلى القطار (ر) لأذهب إلى المركز العربي الأمريكي لتعزيز الأسرة. بدأت بالبكاء عندما فوّت المحطة التي يجب أن أنزل عندها، وكان عليّ أن أترجل من القطار، وأرجع في خطواتي إلى قطار آخر. وعندما اهتديت أخيرًا لطريقي للمركز سألت حسام، موظف الاستقبال، إن كان يمكنني أن أقابل إيمان؟ وقررت ألا أخبرها عن وضعي؛ لأني لم أعرف ماذا سيكون رأيها في عندئذ. أخذتني إيمان إلى غرفة فارغة، وأعطتني طلب التوظيف لأعبئه، وقالت لي:

«إن كان لديك أي سؤال يا فدوى، فأنت تعرفين أين مكتبي».

«شكرًا لك يا إيمان».

كتبت أكبر قدر من المعلومات الشخصية، لكن لم أستطع كتابة شيء عندما وصلت إلى خانة العنوان. لذلك اتصلت بهيلينا، وأخبرتها (دون أن أعطيها تفاصيل كثيرًا؛ حتى لا تشك في خطب ما) أنني أعبئ طلب توظيف، وأحتاج إلى أن أذكر عنوان منزلها وعملها في حال احتاجوا إلى أن يتصلوا بشخص يعرفني.

«بالطبع».

«شكرًا لك يا هيلينا».

«لقد اشتقت إليك يا وردة، مرّي على الصالون اليوم».

«حسنًا يا هيلينا. حالما أنتهي من تعبئة الطلب سأذهب إلى الصالون».

مرت بضعة أسابيع على عملي عند هيلينا، لكنها لم تعرف الكثير عن حياتي الشخصية؛ لأني كنت أكتم كل شيء في قلبي، ولا أشتكي، وأيضًا لم أخبرها بما فعل أخي بي. فالناس يعتمدون علي لأستمع إلى مشكلاتهم، وأريحهم من ألمهم؛ لذلك قررت ألا أقول شيئًا يجعل هيلينا قلقة.

لكن تغيرت خطتي هذه عندما وصلت إلى الصالون، فقد نظرت إلي هيلينا دَهِشَةً، وقالت: «ما المشكلة يا وردة؟ أنت تبدين متعبة!».

بدأت تتحدث عن ابنتها الثانية التي تعيش في مصر مع أبيها وكم تشتاق إليها وكم تتعذب في كل مرة تتحدث فيها معها على الهاتف، وهي تبكي بصمت.

«تخبرني دائمًا بأنها تحتاج إلى أمها، وأنا لا أستطيع الذهاب إلى هناك، ابنتي تبكي بعيدة آلاف الأميال عني، ولا أستطيع أن أحضنها، وأقبل جبينها».

استمعت إليها حتى انهمرت دموعي على خدي، فتوقفت هيلينا عن الحديث، وقالت لي:

«تعالي معي يا وردة».

أمسكت يدي، وذهبنا إلى غرفة الاستراحة، فجلسنا، وسألتني برفق عما يزعجني.

استسلمت أخيرًا، وأخبرتها عن زواج حمزة الثاني وأخذه للأطفال مني، وكيف طردني أخي من منزله، وكيف أعيش في مترو الأنفاق منذ عشرة أيام.

«ماذا؟ لماذا لم تخبريني؟ وردة! كنت أشك في أنك تعانين مشكلة، فأنت دائمًا ترتدين الثياب نفسها، لكن لم أرد أن أسألك عن السبب ستأتين لتقيمي عندي حتى تجدي عملًا ومكانًا تعيشين فيه!».

أخبرتها بأنني سوف أحصل على عمل في عطلة نهاية الأسبوع، وعرضت عليها أن أدفع لها إيجارًا صغيرًا.

«لا تقولي شيئًا كهذا!».

وفي يوم السبت عملنا في الصالون في الصباح، وأغلقنا باكرًا. استمتعت برفاهية الاستماع للموسيقا في السيارة والجلوس على طاولة المطبخ؛ لأشرب فنجان قهوة في الصباح. فتحت هيلينا المتجر نصف يوم فقط، وبعد الظهر أخبرتني بأنها ستأخذني إلى مكان ما، فقادت السيارة وبعد مدة قصيرة وجدت نفسي في متجر ملابس اسمه (نيويورك آند كومباني».

«تحتاجين إلى شيء لترتديه، إلى أن تسترجعي ثيابك من منزل أخيك».

اشترت كلتانا نفس القميص ذي اللون القمحي والأكمام الطويلة وبنطالًا أسود فضفاضًا، واشتريت أنا أيضًا زوجين من الملابس الداخلية وحذاءً. أخرجت هيلينا بطاقتها الائتمانية، ووعدتها بسرعة أن أدفع لها حالما أحصل على أول شيك لي من المسجد.

«لا، يا وردة، لا تقلقي بهذا الشأن، فأنت ساعدتني كثيرًا في الصالون، وأنا لا أستطيع أن أدفع لك مرتب دوام كامل، لكني أستطيع مساعدتك بهذا».

شكرتها كثيرًا ثم ذهبت إلى حصتي المسائية في كلية (برامسون أورت). وأخيرًا عدت لما يشبه الحياة العادية مدة من الزمن.

اتصلت بمنزل أخي لأتحدث مع أمي؛ لأتأكد أنها بخير، كنت أعرف في أي وقت يغادر سام وسامية المنزل، لذلك لم أخاطر بأن يرد أحدهما على الهاتف، ويعيد ذلك التهجم اللاذع عليّ، كما فعلا آخر مرة تحدثنا فيها.

«كيـف حالك يا فدوى؟ ألديك مكان تنامين فيه؟ ألديك عمل تكسـبين منه المال؟ ماذا تأكلين؟».

«أنا بخير يا أمي، لا تقلقي».

لـم أخبرهـا عن الليالي التي قضـيتها في متـرو الأنفاق، أو كيف كنـت آكل بعض رقائق الشيبسـي أو فتات طعام ملقى على الأرض. لم يكن بإمكانها فعل شـيء لمسـاعدتي، لذلك لم يكن هناك سبب وجيه لأخبرها، فذلك سيجعلها حزينة فحسب.

«تعالي لزيارتي يا فدوى، أريد أن أراك لأتأكد أنك فعلًا بخير».

«وأنا أريد أن أراك يا أمي، سوف أتصل بك مرة أخرى خلال بضعة أيام سآتي لزيارتك إن لم يكن سام وسامية في المنزل».

كنت مشتاقة إليها كثيرًا، لكني أردت أن أنتظر حتى يصبح معي بعض المال؛ لأشتري لها بعض عصير الفاكهة.

كنت في صـباح معظم الأيام أذهب إما للصـالون أو لحصة اللغة الإنجليزية في المركز العربـي الأمريكي. كان معلمي، جون، رجلًا أمريكيًّـا أبيض طويلًا، ويتمتع بروح الدعابة، لكنه يحـب أن يركز على كل صـغيرة وكبيرة، لذلك كنـت أمزح معه، وأخبره: «عليـك يا جون، بأن تعمل مع المخابرات العامة»، فكان هو والطلاب الآخرون يضـحكون. تعرفت أيضًـا إلى زميلة في الصف اسمها (ياسمين) كانت عائلتها عائلة مسلمة من الجزائر، لكنها ولدت في فرنسا، وعاشت هناك معظم حياتها؛ لذلك لم تتعلم أبدًا تحدث العربية.

«أتعلميني العربية يا فدوى؟ أريد على الأقل تعلم الأساسـيات. يمكننا الحضـور للمركز قبل ربع ساعة من حصة جون، وأنا سأعلمك الفرنسية في المقابل».

«حسنًا يا ياسمين، يمكنني فعل ذلك».

وفي الأسـبوع نفسه اتصل الشيخ ليسـألني إن كان بإمكاني الحضور للمسجد بعد صلاة الجمعة لألتقي طلابي الجدد. فأخبرته بأدب بأنني سأحضـر، وأغلقت سماعة الهاتف، أصبح الأمل يعود لقلبي شيئًا فشيئًا.

ذهبت يوم الجمعة إلى المسـجد لأبدأ عملي الجديد في أثناء العطلة الأسـبوعية ألا وهي يوما السـبت والأحد. وبعد أن أنهى الجميع صلاتهم أعطاني الشيخ الميكروفون، ورافقني إلى

مقدمة الغرفة لأقرأ القرآن. طلبت مني بعض النساء في المجموعة أن أقرأ آيات معينة من سورة الكهف، فأمسكت الميكروفون، وقرأت بأعلى صوتي، وأخرجت من ذهني جميع الأفكار، وركزت على الكلمات التي أرتلها، وعندما انتهيت أخبر الشيخ النساء بأنني سأعطي حصصًا في اللغة العربية والدراسات الإسلامية في عطل نهاية الأسبوع، ودعاهن إلى أن يسجلن أطفالهن. وبعد مدة قصيرة بدأت أعلم طلابي، وعند انتهاء الشهر حصلت على أول شيك مقداره ٢٥٠ دولارًا. أشعرني ذلك بالثقة من جديد، فاستجمعت شجاعتي، وأخبرت الشيخ بأنني أبحث عن زميلة سكن.

بعد أن انتقلت للعيش مع هيلينا، وبدأت أعمل في عطل نهاية الأسبوع أخبرت أمي بأنني قادمة لأراها، اشتريت لها بعض الموز والعصير. فاتصلت بها عندما اقتربت من الشقة، وكانت تنتظرني عند الباب.

سلمت عليها، وقبلت يدها ورأسها، فبدأت بالبكاء مرة أخرى، ثم دخلنا الشقة، وتحدثنا قليلًا، أخبرتني بأنها لم تعد تذهب لمتجر سام وسامية كثيرًا منذ أن غادرت، وفضلت أن تبقى في المنزل.

«أريد أن أعود إلى الأردن، فأنا لا أشعر بالراحة، عندما أطلب من سامية فعل أشياء كنت أنت تفعلينها لي، مثل الطبخ ومساعدتي على الاستحمام».

«إن الطقس دافئ يا أمي. أتحبين أن نذهب لنتمشى؟».

«أنا أمشي ببطء شديد، وسيستلزم ذلك وقتًا طويلًا، ومن المحتمل أنك تريدين الذهاب إلى العمل».

«لا تقلقي يا أمي».

ساعدتها في ارتداء معطفها وحذائها، ثم ذهبنا نمشي ببطء شديد حول الحي، وبعد أربعين دقيقة تعبت أمي كثيرًا، فساعدتها على الاتكاء على شجرة لتلتقط أنفاسها.

«لا أعتقد أن بإمكاني المشي أكثر يا فدوى».

«يمكنني أن أحملك على ظهري يا أمي».

«لا، أنت لن تقدري على هذا، فأنا ثقيلة جدًّا».

«لا تقلقي يا أمي، فأنت حملتني تسعة أشهر، وكنت ثقيلة أيضًا».

وضعت أمي على ظهري، وحملتها إلى المنزل، وعندما تأكدت أنها مستريحة على الأريكة أخذت حقيبتي المدرسية وثيابي التي تركتها هنا، ثم ودعتها.

بقيت أزور أمي من حين إلى آخر، وأطمئن عليها، وأقضي بعض حاجاتها إلى حين مغادرتها أمريكا ٢٠٠٤م، ودعتها وسألتها أن تحفظني بدعائها المستمر لي، بعد سفرها تركت لي فراغًا كبيرًا.

أمي، أنت الحب والجنة تحت قدميك. «اللهم، ارحمهما واغفر لهما، واشفِهما، وارضَ عنهما رضا تحلّ به جوامع رضوانك، وتحلّ دار كرامتك وأمنك ومواطن عفوك وغفرانك».